

اجتهادات الفخر الزائف

يُذكرنا مسلسل “حريم السلطان”، الذي حققت نسخته المدبلجة معدلات مشاهدة قياسية في العالم العربي، بجانب مهم من التاريخ العثماني، رغم تركيزه على صراعات حريم القصر ومكائدهن.

وتفيد استعادة ذلك التاريخ في تأمل كيف يتحول صعود صاروخي، أو ما يبدو أنه كذلك، انحداراً مطرداً نحو هاوية سحيقة أخذت في حالة الدولة العثمانية صورة الهزيمة وسقوط السلطنة أو الخلافة وتفككها، ثم دخول مركزها “تركيا” في أزمة ممتدة مثلها مثل بعض المناطق التي سيطرت عليها تلك الدولة، بخلاف مناطق أخرى خضعت لهيمنتها أيضاً. فقد حققت الدولة العثمانية انتصارات عسكرية كبيرة، وتوسعت في القارات الثلاث القديمة. ورغم أن مسلسل “حريم السلطان” ينطوي على نقد ضمنى في الإطار الدرامي لأنماط العلاقات في قصر السلطان وآثارها على الدولة، لم يخف صانعوه فخرهم بفتوحاتها التي جعلتها القوة الأولى في العالم ذات يوم. ولم ينتبهوا إلى أنه فخر زائف لأن الفتوحات أخفت هشاشة في البناء الداخلي أدت إلى تصدعه.

فلم تكن أنماط العلاقات في القصر إلا أحد الاختلالات التي جعلت تلك الدولة هشة وعاجزة عن التطور ومواكبة المستجدات التي كانت تحدث في مناطق سيطرت عليها، مثل الإمارات الإيطالية.

وفى الوقت الذى ظل الاقتصاد العثمانى راكداً متخلفاً معتمداً على الجباية، كانت تلك الإمارات تحقق فتحاً أهم من كل فتوحات السلاطين، حيث أرسى أسس الانتقال من الإقطاع إلى الرأسمالية بدىناميكتها وانفتاحها ورحابتها. وكان التجار الإيطاليون الذين أظهرهم المسلسل فى صورة من يتوسلون إلى السلطان وأمرائه ليسمحوا لهم بالإبحار فى المتوسط قد بدأوا فى استثمار أموالهم فى الزراعة السلعية وتطوير الحرف التقليدية، وبالتالى وضع الأسس التى قامت عليها الصناعة بعد ذلك انطلاقة من بريطانيا.

وفى تلك المرحلة تحديداً بدأ الافتراق التاريخى بين نمطين من العقل. أحدهما مازال مستمراً فى منطقتنا وحائلاً دون خروجها من تخلفها التاريخى. أما الثانى الذى انتشر من أوروبا إلى بعض مناطق العالم فهو العقل العلمى النقدى المنهجى المنفتح.

وأحد الفروق بينهما أن العقل السائد لدينا لا يعنى فى الغالب إلا بأمور تبدو فى ظاهرها كبيرة، ولا يُمَيِّز بين الزيف والحقيقة، فيفخر بما هو زائف، ولا يدرك ما هو حقيقى فى كثير من الأحيان.